آيات الاحكام والتشابه قراءة تفسيرية مقاصدية

م.م. درر عبدالله حمزة القره غولي
dorar.hamza@uobabylon.edu.iq
جامعة بابل/ كلية الصيدلة

الملخص

العلماء من مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) اهتموا قديماً وحديثاً بنظرية المقاصد، فأغلب مؤلفاتهم في الفقه والأصول فضلاً عن التفسير تتضمن حديثا عن المقاصد، ولكن بعناوين أُخرى مثل روح الشريعة والحكمة وتبعية الأحكام للمصالح والمفاسد، وفي علم التفسير مثل الهدف والغرض وإيحاءات النص، واجمعوا جميعهم أنَّ للأحكام الإلهية والنصوص القرآنية المباركة مقاصد وأهداف وغايات وأنها جاءت لجلب مصلحة للعباد ودفع مفسدة عنهم ولكن رغم اجماعهم عليها الا انهم لم يدخلوها في استنباط الاحكام الشرعية إلا ما ندر لأسباب عديدة.

أما في علم التفسير فإن مقاصد الأحكام الشرعية جاءت على مستويات وأبعاد مختلفة، والذي وقفنا عليه في هذه الدراسة هي تفسير الايات الكريمة ومن ثم استخراج مقاصد الله تعالى فيها وفقا لما ذكره النص القراني وما أورد المفسرون بعد تبيان مفهوم المحكم والمتشابه عند علماء اللغة والمفسرون.

الكلمات المفتاحية: المقاصد، التفسير، المحكم، المتشابه، مفسرون معاصرون، مدرسة أهل البيت (عليهم السلام).

Verses of Ahkam and Similarity, Reading in the interpretation and Maqasid

Assist. Lecturer Dorar Abdullah Hamza al karagoly
University of Babylon\College of Pharmacy

Abstract

Scholars from the school of Ahl al-Bayt (peace be upon them) have been interested, past and present, in the theory of objectives. Most of their works on jurisprudence and principles, as well as interpretation, include talk about objectives, but with other titles, such as the spirit of Sharia law, wisdom, and the subordination of rulings to benefits and

harms, and in the science of interpretation, such as the goal and purpose and the implications of the text, and they unanimously agreed They all believe that the divine rulings and the blessed Qur'anic texts have purposes, goals, and objectives, and that they came to bring benefit to the servants and ward off harm from them, but despite their consensus on them, they did not include them in deducing the legal rulings, except what is rare for many reasons.

As for the science of interpretation, the objectives of the legal rulings came at different levels and dimensions, and what we focused on in this study is the interpretation of the noble verses and then extracting the objectives of God Almighty in them according to what the Qur'anic text mentioned and what the commentators mentioned after clarifying the concept of almuhkam and almutashabih, according to linguists and commentators.

keywords: Al-Maqasid, Interpretation, almuhkam, almutashabih, Contemporaries, School of Ahl al-Babet (peace be upon them).

المقدَّمة

الحمد لله ربّ النور العظيم والكُرسي الرفيع منزّل التوراة والانجيل والزبور ومنزَلَ القرآن العظيم، والصلاة والسلام على من بلَّغ رسالات ربه ونصح لأمته وعبِدَ الله حتى أتاه اليقين أبا القاسم محمد، والسلام على الشجرة النبوية والدوحة الهاشمية مولاي وسيدي علي وعلى آل بيته الأبرار.

وبعد...

بزغ النور الإلهي في صحف القرآن ليبثَّ الرحمة واللطف وينشر الهدايات الإلهية، فجاء متضمّناً تعاليم السماءِ المبثوثة في الانجيل والتوراة فضلاً عن المعارف التي جاء بها من فلسفةٍ وحكمةٍ وقصص وعقائد ومُثل ومعنويات روحية، فالإسلام الذي جاء به القرآن ذي أبعاد عالمية يوجه طاقاته إلى وجهات مختلفة وحتى متناقضة نحو المشاعر والأفكار للفرد والمجتمع فيأخذ المجتمع بذلك طريقه إلى الاعتدال.

اليوم نحن بحاجة الى نهضة شاملة تعيد للإسلام ما سلبناه، واعظم ما سلب منه روحه وبقي جسده ذا الاطار النظري فقط، والنهضة الشاملة تستوجب قيام دراسات توازي الدراسات النظرية دراسات مقاصدية تستوحي الشريعة وتُخرِج نور الله الأعظم فيدخل

القلوب قبل العقول، دراسات تبرّز الوجه الحقيقي للإسلام والقرآن واستيحاء مقاصده الأصلية وذلك من أجل تحرير الإنسانية وتأسيس حضارة إنسانية بديلة ذات منهج إسلامي يقف بهداياته ونوره الإلهي بوجه المادية والنظريات المعادية.

وأحد هذه العناصر ذات التأثير الاقوى هي المقاصد الإلهية، التي دلَّ تراث الفكر الإسلامي المتراكم على حضور المقاصد في المنظومة الإسلامية ولكن بإطار خاص مُحدَّد عند جلّ علماء الفقه والأصول، وعند علماء التفسير.

اهتم العلماء المفسِّرون سابقاً وإلى الآن بعلوم القرآن الكريم وعكِفوا على دراستها ومن تلك العلوم المُحكم والمتشَابه وقد كتبوا فيه الكثير، ولكن الذي ندرسه الآن هو مقاصد بعض الايات التي حدث فيها التشابه وطبيعة هذه الدراسة تفرض علينا التعرف على الدلالة اللغوية والاصطلاحية لمفردتي المُحكم والمتشابه ومن ثمَّ تفسير بعض الآيات التي وقع فيها التشابه للوصول إلى مراد و مقاصد الله عزَّ وجلَّ فيها والتي سنقتصر فيها على ثلاث نماذج قرآنية مباركة.

المبحث الأول: الدلالة اللغوية والاصطلاحية للمحكم والمتشابه

المطلب الأول: الدلالة اللغوية والاصطلاحية لمفردة المُحكم

المُحكم لغة:

المُحكم في اللغة: "الذي لا اختلاف فيه ولا اضطراب، وقيل هو مالم يكن متشابها لأنَّه احكم بيانه بنفسه، وهو فعيل بمعنى مُفعَل" [١].

المُحكم اصطلاحا:

يطلَقُ المُحكم في لسان الشرعيين على معنيين الأول الذي يكون في مقابل المنسوخ، والمعنى الثاني الذي يقابل المتشابه.

فيُرَاد به على الاصطلاح الأول:"الحُكم الشرعي الذي لم يتطرَّق إليه نسخ، ويُراد به على الثاني: ما ورد من نصوص الكتاب أو السُنَّة دالًّا على معناه بوضوحٍ لا خفاء فيه وموضوع البحث هنا هو الاصطلاح الثاني" [٢].

للمحكم في الاصطلاح اطلاقات عدّة منها:

- قال الشيخ الطوسي: "المُحكم ما أنبأ لفظه عن معناه من غير اعتبار أمر ينضم إليه سواء كان اللفظ لغوياً أو عرفياً، ولا يحتاج إلى ضروب من التأويل، قال تعالى: {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَد}[الاخلاص / ٣]"[٣].

[١] ابن منظور، لسان العرب، ١٢ / ١٤١.

[٢] مُحمَّد بكر إسماعيل، دراسات في علوم القرآن، ١٨٣.

[٣] الشيخ الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ١ / ٩.

علّق عليه الشيخ الطبرسي: "أُحكمت آياته، أي أُحكمت في نظمها بأن جعلت على أبلغ وجوه الفصاحة حتى صار معجزاً ثم فصلت بالبيان فالقرآن الكريم مُحكم النظم مفصل الآيات أو أُتقنت آياته فليس فيها خلل أو اضطراب لأنَّ الفعل المُحكم ما قد اتقنه فاعله حتى لا يكون فيه خلل ثم فصلت وجعلت متتابعة بعضها أثر بعض"[١].

فعلى المعنى الأول فان الإحكام صفة للفظ "فالقرآن بجزالة نظمه واتقان أُسلوبه محكم ومتقن لا يمكن تحدّيه وعلى الثاني وصف لمعناه فهو يشتمل من التوحيد والاخلاق وسائر السنن – على أُصول محكمة لا تنتقض" [٢].

- المُحكم: "ما أُحكم المراد به عن التبديل والتغيير أي التخصيص والتأويل والنسخ مأخوذ من قولهم: بناء محكم أي مُتقَن مأمون الانتقاض" [٣].

- "اللفظ الذي دل على معناه دلالة واضحة قطعية لا تحتمل تأويلاً ولا تخصيصاً ولا نسخاً" [٤].

- المُحكم هو"الذي يدلُّ على معناه بوضوح لا خفاء فيه , والمتشابه هو الذي يخلو من الدلالة الراجحة على معناه، فيدخل في المُحكم النص والظاهر، أمَّا النصُّ فلأنَّه اللفظ الذي وضع للمعنى الراجح المتبادر، ويدخل في المتشابه المجمل والمؤول والمشكل, لأنَّ المجمل يحتاج إلى تفصيل, والمؤول لا يدل على معنى إلا بعد التأويل، والمشكل خفي الدلالة فيه لبس وإبهاماً" [٥].

- "وهي الآيات ذات الألفاظ المحدّدة من حيث تعيين المعنى والمفهوم فهي تحمل الصورة الذهنية المتعيّنة والمصداق الخارجي المتعيّن بواقعه بما لا التباس فيه أصلاً " [٦].

هذه جملة من المعاني الموضوعة لتعريف مفردة المُحكم، بعضٌ منها فيه إطالة والآخر زيادة وصف والتعريف الأدق والأشمل ما ذكره السرخسي والشيخ علي عبد الرزاق مرزة.

وخُلاصة القول في هذا الأمر هو ما ذكره السيد المرتضى (ره) في كتابه الناسخ والمنسوخ بقوله: "وإنّما هلك الناس في المتشابه لأنهم لم يقفوا على معناه, ولم يعرفوا حقيقته, فوضعوا له تأويلات من عند أنفسهم بآرائهم واستغنوا بذلك عن مسألة الأوصياء ونبذوا قول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وراء ظهورهم، والمُحكم مما تأويله في تنزيله من تحليل ما أحلّ الله عزَّ وجلَّ في كتابه, وتحريم ما حرم الله من المآكل والمشارب والمناكح، ومن ما شرَّع الله عزَّ وجلَّ من الصلاة والزكاة والصيام

[١] الشيخ الطبرسي، مجمع البيان، ٥ / ٢١٤.

[٢] الشيخ جعفر السبحاني، المناهج التفسيرية في علوم القرآن، ١٦٠.

[٣] الشريف الجرجاني، التعريفات، ٢٠٥– ٢٠٦.

[٤] السرخسي، أصول الأحكام، ١ / ١٦٥.

[٥] صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن ، ٢٨٢.

[٦] الشيخ علي عبد الرزاق مرزة، التجديد في تفسير القرآن المجيد، ٤ / ٣٩٧.

والحج والجهاد, ومما دلّهم به مما لا غنا بهم عنه في جميع تصرفاتهم , مثل قوله تعالى {يَا أَيّهَا الّذِيْنَ آمَنُوا إذَا قُمْتُم إلى الصَّلاةِ فاغْسِلُوا وجُوهكم وأيديكم إلى المرفق وأمْسَحُوا بِرؤوسُكم وأَرجلكم إلى الكَعْبَينِ} [المائدة / ٦] , وهذا من المُحكم الذي تأويله في تنزيله لا يحتاج في تأويله إلى أكثر من التنزيل, ومنه قوله عزَّ وجلَّ {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ} [المائدة / ٣], فتأويله في تنزيله"[١].

المطلب الثاني: الدلالة اللغوية والاصطلاحية لمفردة المتشابه

المتشابه في اللغة

التشابه في اللغة: التماثل، قال ابن منظور في لسان العرب: "المشتبهات: المشكلات، والشبهة: الالتباس، وشبّه عليه: خُلِطَ عليه الأمر حتى اشتبه بغيره" [٢].

ما تشابه من الأمور بعضها ببعض، بحيث تلتبس على الناظر فيها يقال: اشتبهت الأمور أي التبست لاشتباه بعضها ببعض [٣].

ومن هنا نفهم أنَّ المتشابه يدل على المماثلة والمشاكلة المؤدية إلى الالتباس غالبًا.

المتشابه في الاصطلاح

عرّف المتشابه في الاصطلاح بعدَّةٍ من التعاريف ذات الدلالات المتباينة حيناً والمتشابهة حيناً آخر وهذه التعريفات هي:

- عرَّفه الشيخ الطوسي: "المتشابه ما كان المُراد به لا يعرف بظاهره بل يحتاج إلى دليل وما كان محتملاً لأمور كثيرة أو أمرين ولا يجوز أن يكون الجميع مُراداً، وإنَّما سمي متشابها لاشتباه المراد منه بما ليس بمراد" [٤].

- قال الراغب الاصفهاني: "المتشابه من القرآن ما أشكل تفسيره لمشابهته بغيره إمّا من حيث اللفظ أومن حيث المعنى" [٥].

- ان المُحكم ما يؤمن به ويعمل به، والمتشابه ما يؤمن به ولا يعمل به، وقد صيغ هذا الاتجاه بأساليب مختلفة نسب بعضها إلى ابن عباس، وبعضها إلى ابن تيمية [٦]،

[١] الآيات الناسخة والمنسوخة للشريف المرتضى ٦٤مركز الابحاث العقائدية /http://www.aqaed.com/faq/4813

[٢] ابن منظور، لسان العرب، ١٣ / ٥٠٤.

[٣] ينظر: الزمخشري، أساس البلاغة، ٤٩٣.

[٤] الشيخ الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ١ / ٩.

[٥] الراغب الاصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ٤٤٣.

[١]، وقد ورد هذا التفسير للمحكم والمتشابه في بعض النصوص المروية عن أهل البيت (عليهم السلام) [٢].

إنَّ هذ ا ليس بياناً للمحكم والمتشابه وتعريفاً لهما بل لما يترتب عليهما من الحُكم من وجوب الاتباع والعمل بالمحكم وتحريم الاخذ بالمتشابه [٣]، ثم إنَّ الآية التي بين أيدينا لا تمنع من العمل بالمتشابه بل تمنع وتحرّم اتباع المتشابه من أجل الفتنة وعدم الرجوع إلى المُحكم[٤].

وعلى هذا الاتجاه رأى العلَّامة الطباطبائي بأنَّه "لا يقوم بتحديد معنى المُحكم والمتشابه – كما هو المقصود– وإنَّما يبيّن حُكماً من أحكامها، وهو لزوم الإيمان والعمل معا بالمحكم والإيمان فقط بالمتشابه، ونحن بحاجة إلى تعيين معنى كل واحد من المُحكم والمتشابه في المرحلة الأولى ليمكن ترتيب الأثر عليهما، لنعمل بالأول ونكتفي بالإيمان بالثاني"[٥]، ويقرب بذلك أن يكون المتشابه هو الحقائق الغيبية التي قصُرت أفهام البشرية عن إدراكها أو تصوّرها ولكن يمكننا تحديدها والإيمان المطلق بها.

ويمكن ان نضيف إلى ذلك أن الآية الكريمة لا تحرم او تمنع من العمل بالمتشابهات، وإنَّما تحرّم الأخذ بالمتشابه بقصد الفتنة والتأويل، قبل ارجاعه إلى المُحكم [٦].

- المتشابه: "تلك الآيات التي يحصل من خلالها الخلط والالتباس ابتداءً وللنظرة الأُولى نتيجة الجهل في جهة من الجهات أو لسبب من الأسباب"[٧].

- وقال العلَّامة الطباطبائي: "المُراد بالتشابه كون الآية لا يتعيّن مرادها لفهم السامع بمجرد اسماعها، بل يتردد بين معنى ومعنى حتى يرجع إلى محكمات الكتاب فتُعيّن هي معناها وتبيّنها بياناً ؛ فتصير الآية المتشابهة عند ذلك محكمة بواسطة الآية المحكمة، والآية المحكمة، محكمة بنفسها"[٨]، ويبدو أنَّ هذا التعريف هو الأقرب للدلالة المصطلحية للفظ المتشابه.

كما أنّ قوله سبحانه: "الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى" [طه/ ٥]، فالمراد منه يشتبه على السامع أوّل ما يسمعه، فإذا رجعنا إلى مثل قوله تعالى: "لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ" [الشورى/ ١١]، استقر الذهن

[١]) ينظر: العلَّامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ٣/ ٣٣.

[٢]) ينظر: العياشي، تفسير العياشي، ١ / ١١.

[٣]) ينظر: الشيخ مُحمَّد باقر الملكي،، نفحات من علوم القرآن، ٧٤.

[٤]) ينظر: الشيخ علي عبدالرزاق مرزة، التجديد في تفسير القرآن المجيد، ٤ / ٤٠٢.

[٥]) العلَّامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ٣/ ٣٦.

[٦]) ينظر: السيد مُحمَّد باقر الحكيم، علوم القرآن الكريم، ١٨١.

[٧]) الشيخ علي عبدالرزاق مرزة، التجديد في تفسير القرآن المجيد، ٤ / ٣٩٧.

[٨]) العلَّامة الطباطبائي ، الميزان في تفسير القرآن، ٢١/٣.

على أنّ المراد به هو التسلّط والاقتدار على الملكوت وجميع الخلق دون أي اعتماد على المكان الذي يستلزم التجسيم المستحيل على الله سبحانه [١].

وكذا قوله تعالى: "إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ" [القيامة /٢٣]، إذا أرجع إلى مثل قوله: "لا تُدْرِكُهُ الأَبْصار وَهُو يُدْرِكُ الأَبْصار" [الانعام/ ١٠٣]، عُلم هنا به أنّ النظر قصد به غير النظر بالبصر الحسي، "فهذا ما يتحصّل من معنى المُحكم والمتشابه ويتلقّاها الفهم الساذج من مجموع الآية، ولا ريب أنَّ الآية التي تقسّم آيات الكتاب إلى محكم ومتشابهة من الآيات المحكمة"[٢].

فعلى ضوء ذلك ان القرآن من اوله الى اخره مفهوم ومعلوم ، ولم يتوقف أي عالم او مفسر عن تفسير الاية بحجة وجود التشابه او انحصار علمها بالله تعالى سوى بعض المختصات، بل يبقى المفسر باحثا عن ما يزيل التشابه ويرفع الاشكال سواءا أكان الدليل نص قراني او روائي، قال الشيخ الطبرسي: "وممّا يؤيد هذا القول، أي انّ الراسخين يعلمون التأويل . انّ الصحابة والتابعين أجمعوا على تفسير جميع آي القرآن ولم نرهم توقفوا على شيء منه لم يفسروه بأن قالوا: هذا متشابه لا يعلمه إلاّ الله" [٣]، وعلى هذا فإنَّ جل علماء ومفسري الامامية يرون أنَّ المتشابه وعلى الوضع الاصطلاحي عندهم يمكن تأويله.

ومن الأدلة الأخرى على امكان تأويل المتشابه هي"قاعدة اللطف التي تفرض وجود علماء عارفين بتأويل المتشابهات على وجهها الصحيح، ليقفوا سداً منيعاً فى وجه أهل الزيغ والباطل، دفاعا عن الدين وعن تشويه آي الذكر الحكيم، وأيضاً- لوكانت الآي المتشابهة مما لا يعرف تأويلها إلّا الله، لأصبح قسط كبير من آي القرآن لا فائدة في تنزيلها سوى ترداد قراءتها" [٤]، يقول سبحانه: "وَلَقَدْ يَسَّرنا القرآن لِلّذِّكْر فَهَلْ مِنْ مُدَّكر" [القمر /١٧]، "كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ" [ص / ٢٩]، فالقرآن الكريم كتاب هداية وتذكرة أُنزل للتدبّر فيه، وعلى ذلك فإن المتشابه مما يمكن معرفة تأويله من قبل الراسخون في العلم الذين يعرفون قواعد العلم والدين والأسس الصحيحة له ، ودرسوا من واقع الشريعة أصولها ومبانيها الرصينة، بحيث لم يقع اختلاف او تضاد بينها وبين ظاهر اللفظ وما يدل عليه، أي انهم يعرون التأويل الصحيح له، من خلال المعارف والعلوم الإلهية الي جعلها الله تعالى في خدمة البشرية

[١] ينظر: الشيخ جعفر السبحاني، المناهج التفسيريّة في علوم القرآن، ١٦٤.

[٢] العلَّامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ٣ / ٢١.

[٣] الطبرسي، مجمع البيان، ١ / ٤١٠.

[٤] الشيخ مُحمَّد هادي معرفة، التمهيد في علوم القرآن، ٣ / ٣٨.

وطلاب العلوم الدينية على شرط تمكّنهم منها مع عناية الله تعالى بهم ، قال تعالى: "وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا" [الروم / ٦٩]، وقوله تعالى: "وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً" [مريم / ٧٦]، "الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ" [فصلت / ٣٠] أمّا الجاهل الذي قصرت فيه سبل العلم فلا يعرف من الدين شيئاً سوى ظواهره، فلا يمكنه الفصل والتميز ومعرفة محكمات الكتاب ومتشابهاته فما عليه إلَّا التسليم المطلق والايمان بكل ما جاء في الكتاب الخالد من معارف وحقائق" [١].

المبحث الثاني: آيات الإحكام والتشابه قراءة تفسيرية

بعد أن ثبت لنا إمكان تأويل المتشابه سنقف على بعض الآيات التي وقع فيها التشابه، مع أنَّ تحديد الآيات المحكمة والمتشابهة في القرآن الكريم من الأمور النسبية التي تختلف من فهم شخص إلى آخر ومن مجتمع إلى آخر فرُبَّ مُحكم عند اخر متشابه ورُبَّ العكس ورُبَّ متشابه كان في مرحلة من الزمان واصبح الآن محكماً [٢].

وهذه الآيات المتشابهة تارة يكون تشابهها عند العامة من الناس دون الخاصة من العلماء المتفقّهين فأُزيل التشابه عند تفسيرها كما أنَّ هناك آيات أُخر كان تشابهها حاصل عند الجميع من بني البشر فعلمها عند الله تعالى وما بوسعنا إلى الإيمان بها.

بعض المفسرين عند تفسيرهم للآيات المتشابهة قد ذكروا بعض مقاصدها الإلهية وإن كانت قليلة جداً وهذه المقاصد التي ذكروها لاتخلو من بعض الإشكالات ولكنها تبقى محاولات أولى في هذا الطريق وهكذا هو دأب العلوم والعلماء اللاحق يكمل مابدأه الأول.

للتعرف على ماكتبه المفسرين في هذا الشان سنقف عند بعض الآيات المتشابهة ومتابعة تفسيرها وما قيل بشأن مقاصدها.

أولاً: قوله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَالْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤) " [ابراهيم / ٤]

وقع التشابه في هذه الآية المباركة من حيث دلالتها على الجبر وقد ثبت أنَّ الإنسان مخير تحت القدرة والمشيئة الإلهية، أي أنَّ التشابه حصل من خلال الفَهْم الظاهري للآية وتوهم مخالفتها لعقيدة ثابتة، فقيل كيف يهدي الله من يشاء ويُضل من يشاء ثم تُعد لهم المحكمة الإلهية وينتهي المصير أمَّا إلى الجنة أوإلى النار النار بمصير قد أُعد لهما مسبقاً؟

[١] المصدر نفسه، ٣ / ٤٨.

[٢] ينظر: الشيخ علي عبدالرزاق مرزة، التجديد في تفسير القرآن المجيد، ٤ / ٤٠٢.

وهي بظهورها الأوّلي تفيد الجبر وعدم الاختيار، وتنسب هدى الإنسان أوضلاله إلى الله، وتعتبر مشيئة الله منشأ الإيمان والكفر والسعادة والشقاء.

والجواب على ذلك: إنَّ قوله تعالى: "فَيُضِلُّ اللّه مَن يَشاءُ" يحتمل أمرين:

أحدهما: انه يحكم بالضلال على من يشاء اذا انحرفوا عن الحق وطريقه.

الثاني: يبعدهم عن الجنة وطريقها اذا كانوا يستحقون العقاب و"يَهدِي مَن يَشاءُ" الى طريق الجنة "وَهُو العَزِيزُ" يعني القادر الذي لا يقدر أحد علي منعه (الحكيم) في جميع أفعاله، ليس فيها ما لصفة السفه ويحتمل أن يريد إنَّه محكم لأفعاله الّتي تدل علي علمه [١].

فالضلال والهداية في هذه الآية الكريمة يكون بتيسير الهداية لمن أرادها وبعدم الردع عن الضلال لمن أراده وأوغل فيه كي لا يكون الإيمان قسراً [٢]، "فيضل الله من يشاء" بالخذلان، "ويهدى من يشاء" بالتوفيق "وهوالعزيز الحكيم" [٣].

فالآية الكريمة: "فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ" فيها إشارة إلى أنَّ "أمر الهدى والضلال إلى الله لا يتحقق شيء منهما إلَّا عن مشيئة منه تعالى غير أنَّه سبحانه أخبرنا أنَّ هذه المشيئة منه ليست جزافية غير منتظمة بل لها نظم ثابت فمن اتبع الحق ولم يعانده هداه الله، ومن جاحده واتبع هواه أضله الله فهوإضلال مجازاة غير الإضلال الابتدائي المذموم"[٤].

وقدَّم سبحانه الإضلال على الهداية إذ قال: "فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ""لأنَّ ذلك أحوج إلى البيان بالنظر إلى أنَّ الكلام مبني على عزته المطلقة فكان من الواجب أن يبين أنَّ ضلال من يضل عن السبيل كهدى من اهتدى إليها إنَّما هو بمشيئة منه تعالى ولم يغلب في إرادته ولم يزاحم في ملكه حتى لا يخيل إلى كل مغفل من الناس أنَّ الله يصف نفسه بالعزة المطلقة وأنَّه غالب غير مغلوب وقاهر غير مقهور ثم يدعوالناس فلا يستجيبون دعوته ويأمرهم وينهاهم فيعصون ولا يطيعون وهل هذا إلَّا غلبة منهم وقهر وهومغلوب مقهور؟ فكأنَّه تعالى أجاب عن ذلك بأنَّ معنى دعوته تعالى أن يُرسل رسولاً بلسان قومه فيبيّن لهم ما يسعدهم مما يشقيهم وأمَّا ضلال من ضلَّ من الناس كهدى من اهتدى منهم فبمشيئة من الله وإذنه، وحاشاه أن يقهر في سلطانه أويتصرف في ملكه أحد بغير إذنه" [٥].

[١] ينظر: الشيخ الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ٦ / ٢٧٤.

[٢] ينظر: الشيخ مُحمَّد السبزواري، الجديد في تفسير الكتاب العزيز، ٤ / ١٣٩.

[٣] ينظر: الفيض الكاشاني، التفسير الصافي، ١/ ٦١٢.

[٤] العلَّامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١٢ / ١٦ – ١٧.

[٥] المصدر نفسه، ١٢ / ١٦ – ١٧.

وعلى هذا فإنَّ الهداية والضلال لهما مراتب ثلاث وهي: البيان والترك، واللطف الخفي والخذلان، والإيصال إلى المطلوب وهي الجنة وعدم الإيصال.

يفعل كل ذلك حسب الحكمة والصلاح فمن أبى الهداية تركه في ظلمات الضلال ومن رغب فيها أخذ بيده درجة فدرجة كالمعلم الذي يترك تلميذه الذي لا يحفظ ويأخذ بيد تلميذه الذي يحفظ حتى يرتقي بعد أن يلقي الدرس عليهما على حد سواء [١]، وبهذا زال التشابه ورُفع الاختلاف.

مقاصد النص المقدس "فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ"

ذكر بعض العلماء الأجلاء وأثناء تفسيرهم للآية المباركة بعض المقاصد والأهداف الكامنة في هذا النص المبارك وأسباب ذكر هذا النص في هذه السورة أولماذا وردت أساسا في القرآن الكريم؟

وكما قلنا سابقا إنَّ الحديث عن المقاصد وتطبيقها في التفسير عن قصد ودراية لم يكن له عمق زمني ومادُكر منها إلَّا القليل النادر ومن تلك المقاصد:

أولاً: الهداية والضلال بأيدي الناس وتحت المشيئة الإلهية

كان الحديث في الآيأت السابقة عن القرآن الكريم وآثاره الروحية، وتتابع الآية الأولى من هذه المجموعة نفس الموضوع، لكن في بعد خاص وهو أنَّ دعوة الأنبياء وكتبهم السماوية نزلت بلسان أول قوم بعثوا إليهم يقول تعالى: وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه [٢].

ثم يضيف القرآن الكريم بعد أن بين لهم الدعوة الإلهية فيضلُّ الله من يشاء ويهدي من يشاء فليست الهداية والضلال من عمل الأنبياء، بل عملهم الإبلاغ والتبيين، الله سبحانه وتعالى هو الموجه والهادي الحقيقي لعباده.

"ولكي لا يتصور أحد أنَّ هذا القول بمعنى الجبر وسلب الحريات، فيضيف القرآن مباشرة وهو العزيز الحكيم وبمقتضى عزته وقدرته فإنه قادر على كل شيء، ولا أحد له قدرة على المقاومة في مقابل إرادته تعالى، ولكن بمقتضى حكمته لا يهدي ولا يضل أحداً بدون سبب ودليل، بل الخطوة الأولى تبدأ من قبل العباد وبكامل الحرية في السير إلى الله، ثم يشع نور الهداية وفيض الحق في قلوبهم، كما في سورة العنكبوت "والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا"[٣].

وكذلك هو حال التائه في بحر الضلاله من حرّم على نفسه الهداية وفيوضاتها، نتيجة التعصب الاعمى ومحاربة الحق والغرق في الشهوات والتلوث بالظلم والجور والفساد

[١] ينظر: السيد مُحمَّد الحسيني الشيرازي، تقريب القرآن إلى الاذهان، ٣ / ١٠٧.

[٢] ينظر: الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٧ / ٤٥٧.

[٣] الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل

كما يقول تعالى: "كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هو مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ" [غافر/ ٣٤]، ويقول أيضا: " وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ" [البقرة / ٢٦]، وقوله تعالى: "وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ" [ابراهيم / ٢٧]، وعلى هذا فان الهداية والضلال ومحورها بيد الناس انفسهم.

ثانياً: تذكير وتنبيه للمؤمنين والعاصين

تذكر الآية بكل وضوح إنَّ من أراد الآخرة وسعى لها سعيها فإنَّ الله يهديه إليها ومن أعرض عنها واستحب الدنيا فإنَّ الله تعالى يضله، فلايُضل أحداً أويهديه إلَّا بحكمته البالغة.

والتاريخ يشهد على هذه الحقيقة فعندما أرسل ربنا موسى بآياته التي تستجلي الفطرة وتبهر العقل بعصاته ويده البيضاء، أمر الله بأن يذكرهم بأيام الله حين ينتصر المظلوم على الظالم في الدنيا والآخرة لعله يخرجهم بهذه التذكرة من ظلمات الإرهاب والعذاب وعبادة الطاغوت إلى نور الحرية وعبادة الرحمن [١].

وعلى هذا فإنّ الخطاب القرآني: "فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ" فيه ذكرى للعاصين فمهما كان العبد وإن بلغ الجبال طولاً فإنَّه تحت القدرة الإلهية وإنَّ قدرة الله أعظم وهوإله هذا الكون ومالكه وأفعال الإنسان تحت قدرته وملكه، وفي الخطاب أيضاً تذكير للمؤمنين بأنَّهم محاطون باللطف الالهي والهداية الأبدية.

ثانياً: قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا" [الفتح / ١٠].

في هذه الآية المباركة وقع التشابه في المعنى المراد من اليد فهل تُحمل على المعنى الحقيقي الذي فيه مخالفة صريحة لأصول الكتاب ومحكماته أم يُحمل على المعنى المجازي وأنَّها كانت كناية عن قدرة الله تعالى وتأيده؟

وللإجابة على ذلك لابُدَّ من تفسيرها والذي من خلاله سيتضح المعنى وتتجلى الحقيقة، فالقرآن يتحدَّث عن مبايعة المسلمين في الآية فيقول: "إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ" (البيعة) معناها "المعاهدة على اتباع الشخص وطاعته، وكان المرسوم أو الشائع بين الناس أنَّ الذي يعاهد الآخر ويبايعه يمد يده إليه ويظهر وفاءه ومعاهدته عن هذا الطريق لذلك الشخص أولذلك (القائد) المبايع، وحيث أنَّ الناس يمدون أيديهم (بعضهم إلى بعض) عند البيع وما شاكله من المعاملات ويعقدون المعاملة بمد الأيدي و(المصافحة) فقد أطلقت كلمة (البيعة) على هذه العقود والعهود أيضا وخاصة أنهم عند (البيعة) كأنما يقدمون أرواحهم لدى العقد مع الشخص الذي يظهرون وفاءهم له" [٢].

[١]) ينظر: السيد مُحمَّد تقي المدرسي، من هدى القرآن، ٤ / ٢٣٠.

[٢]) الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٦ / ٤٤٢.

والمفسرين في قوله تعالى : "يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ" ذهبوا في عدة اراء:

فقيل: "إنَّه من الاستعارة التخييلية والاستعارة بالكناية جيء به لتأكيد ما تقدمه وتقرير أنَّ مبايعة الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) كمبايعة الله من غير تفاوت فخيل أنَّه سبحانه كأحد المبايعين من الناس فأثبتت له يد تقع فوق أيدي المبايعين للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مكان يد الرسول وفيه أنه غير مناسب لساحة قدسه تعالى أن يخيل على وجه هو منزه عنه"[١].

وقيل: "المراد باليد القوة والنصرة أي قوة الله ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم أي ثق بنصرة الله لا بنصرتهم، وفيه أنَّ المقام مقام إعظام بيعة النبي (صلىالله‌عليه وآله وسلّم) وأن مبايعتهم له مبايعة لله، والوثوق بالله ونصرته وإن كان حسنا في كل حال لكنه أجنبي عن المقام"[٢].

وقيل: "المراد باليد العطية والنعمة أي نعمة الله عليهم بالثواب أو بتوفيقهم لمبايعتك فوق نعمتهم عليك بالمبايعة، وقيل: نعمته عليهم بالهداية أعظم من نعمتهم عليك بالطاعة إلى غير ذلك من الوجوه التي أوردوها ولا طائل تحتها" [٣].

وبالجمع بين مدلولات اللغة ومحكمات الكتاب يتضح معنى "يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ"، إذ إنَّ التعبير هنا كناية على أنَّ بيعة النبي محمد هي بيعة الله تعالى، فكأن الله عزوجل وضه يده الكريمة فوق أيديهم وبالتالي فهم لا يبايعون النبي فقط بل يبايعون الله عزوجل ، وهذه الكنايات كثيرة في اللة العربية وكثر استعمالها عندهم.

ووفق هذا التفسير "فإنَّ من يرى بأنَّ معنى هذه الجملة يد الله فوق أيديهم هو أنَّ قدرة الله فوق قدرتهم أوأنَّ نصرة الله أعظم من نصرة الناس وأمثال ذلك لا يتناسب تأويله مع شأن نزول الآية ومفادها وإن كان هذا الموضوع بحد ذاته صحيحاً"[٤].

فقوله: "إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللهَ" وضع بيعة النبي المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم) منزلة بيعة الله تعالى "بدعوى أنَّها هي فما يواجهونه به (صلى الله عليه وآله وسلم) من بذل الطاعة لا يواجهون به إلَّا الله سبحانه لأنَّ طاعته طاعة الله ثم قرره زيادة تقرير وتأكيد بقوله: "يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ" حيث جعل يده (صلى الله عليه وآله وسلم) يد الله، وفي نسبة ما له (صلى الله عليه وآله وسلم) من الشأن إلى نفسه تعالى آيات كثيرة كقوله تعالى: "مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللهَ" [النساء / ٨٠]، وقوله:

[١]) العلامة االطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١٨ / ٢٧٥.

[٢]) المصدر نفسه، ١٨ / ٢٧٥.

[٣]) المصدر نفسه، ١٨ / ٢٧٥.

[٤]) الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٦ / ٤٤٢.

"فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ" [الأنعام / ٣٣]، وقوله: "لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ" [آل عمران / ١٢٨] "[١].

وقوله: "فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ" "النكث نقض العهد والبيعة، والجملة تفريع على قوله: "إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللهَ" والمعنى: فإذا كان بيعتك بيعة الله فالناكث الناقض لها ناقض لبيعة الله ولا يتضرر بذلك إلا نفسه كما لا ينتفع بالإيفاء إلا نفسه لأن الله غني عن العالمين، وقوله تعالى: " وَمَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً" [الفتح / ١٠] وعد جميل على حفظ العهد والإيفاء به" [٢].

مقاصد النص القرآني: "يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ"

أولاً: جعل الرسول هو المحور في الإسلام

محور المجتمع الإسلامي هو الرسول الذي إن نصحوا له وأطاعوه مخلصين سعدوا به، لأنَّ الله قد أرسله شاهداً ومبشراً ونذيراً، وجعله محوراً لحياتهم، ليؤمنوا بالله ورسوله، ويعزروه ويوقروه.. ويعظموا الله بتعظيم رسوله، ذلك أنَّ يد الرسول هي يد الله، ويد الله فوق أيديهم [٣].

ثانياً: العقد لله والنصرة من الله أعظم

إنَّ عقد الله تعالى هنا في هذه البيعة هي فوق عقدهم لأنَّهم بايعوا الله تعالى ببيعة نبيه (صَلى اللّه عَليه وآله وسلم) وقوة الله تعالى في نصرة نبيه (صَلى اللّه عَليه وآله وسلم) فوق نصرتهم [٤]، فإنَّ جميع عهود العهود والمواثيق مع الانبياء والرسل هي مع الله تعالى ونقضها هو النقض مع الله تعالى، لأنَّ الرسول هو الوسيلة لله تعالى والواسطة في تبليغ الأوامر والنواهي ولا حرفاً من عنده فيما بلغ وشرّع.

ثالثاً: قوله تعالى: **"وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) " [القيامة / ٢٢ – ٢٣]**

المتشابه الذي وقع فيه الاختلاف هو النظر إلى الحق عزَّ وجلَّ، فهل تأخذ الآية على الظاهر ويكون القول بتجسيم الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة؟ أم تُحمل الآية على معان أُخرٍ لأنَّ الحديث عن الساحة القدسية لربِّ العزة الذي ليس كمثله شيء؟

أجاب العلماء أيدهم الله على كل ما أُثير في هذه الآية وجميع الآيات التي حصل فيها هذا الاختلاف واشبعوها بحثاً ودراسة وهذا ما نراه ونلمسه من تفسيراتهم للقرآن الكريم ومنها هذه الآية، فذكروا للنظر ثلاثة وجوه وهي: إمّا نظر الاعتبار، كما في قوله

[١] العلَّامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١٨ / ٢٧٤.

[٢] المصدر نفسه، ١٨ / ٢٧٥.

[٣] ينظر: السيد مُحمَّد تقي المدرسي، مقاصد السور، ٣١٢.

[٤] ينظر: الشيخ الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ٩ / ٣١٩.

تعالى: "أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ" [الغاشية / ١٧] أونظر الانتظار، كما في قوله: "ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً" أونظر الرؤية أمّا الأول فلا يجوز، لأنّ الآخرة ليست بدار اعتبار وكذا الثاني، "لأنّ النظر إذا ذكر مع الوجه فمعناه نظر العينين اللتين في الوجه ولأنَّ نظر الانتظار لا يقرن (إلى)، كما في قوله تعالى: "فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ" [النمل/ ٣٥]، فان قال قائل: لم لا يجوز أن يراد (إلى ثواب ربها ناظرة)؟ قيل له: ثواب الله غيره وقد قال تعالى: "إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ" [القيامة / ٢٣]، ولم يقل: إلى غيره ناظرة والقرآن على ظاهره، وليس لنا أن نزيله عن ظاهره، إلّا لحجة ألا ترى أنّه لما قال: صلوا لي واعبدوني لم يجز أن يقول قائل: إنّه أراد غيره، ويزيل الكلام عن ظاهره، فلذلك لما قال: إلى ربها ناظرة، لم يجز لنا أن نزيل القرآن عن ظاهره بغير حجة"[١].

فقوله تعالى: "وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إلى رَبِّها ناظِرَةٌ" [القيامة / ٢٢-٢٣]، وصف ليوم القيامة بانقسام الوجوه فيه إلى قسمين: ناضرة وباسرة، ونضرة الوجه واللون والشجر ونحوها ونضارتها حسنها وبهجتها.

فالمراد "بالنظر إليه تعالى ليس هو النظر الحسي المتعلق بالعين الجسمانية المادية التي قامت البراهين القاطعة على استحالته في حقه تعالى بل المُراد النظر القلبي ورؤية القلب بحقيقة الإيمان على ما يسوق إليه البرهان ويدل عليه الأخبار المأثورة عن أهل العصمة (عليهم السلام) وقد أوردنا شطرا منها في ذيل تفسير قوله تعالى: "قالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ" [الأعراف /١٤٣]، وقوله تعالى: "ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى" [النجم / ١١]"[٢].

فهؤلاء قلوبهم متوجهة إلى ربّهم لا يشغلهم عنه سبحانه شاغل من الأسباب لتقطع الأسباب يومئذ، ولا يقفون موقفا من مواقف اليوم ولا يقطعون مرحلة من مراحله إلا والرحمة الإلهية شاملة لهم "وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ" [النمل / ٨٩]، "فلا يشهدون مشهداً من مشاهد الجنة ولا يتنعمون بشيء من نعيمها إلَّا وهم يشاهدون ربَّهم به لأنَّهم لا ينظرون إلى شيء ولا يرون شيئاً إلَّا من حيث إنَّه آية لله سبحانه والنظر إلى الآية من حيث أنَّها آية ورؤيتها نظر إلى ذي الآية ورؤية له، ومن هنا يظهر الجواب عما أورد على القول بأن تقديم (إلى رَبِّها) على (ناظِرَةٌ) يفيد الحصر والاختصاص، إنَّ من الضروري أنَّهم ينظرون إلى غيره تعالى كنعم الجنة، وأمَّا ما أجيب به عنه أنَّ تقديم (إلى رَبِّها) لرعاية الفواصل ولوسلم أنَّه للاختصاص فالنظر إلى غيره في جنب النظر

[١] مُحمَّد هادي معرفة، التمهيد في علوم القرآن، ٣ / ٩١.

[٢] العلَّامة الطباطبائي، الميزان في تفسير الميزان، ٢٠ / ١١٢.

إليه لا يُعد نظراً، ولوسلم فالنظر إليه تعالى في بعض الأحوال لا في جميعها، فلا يخلومن تكلف التقييد من غير مقيد على أنَّه أسند النظر إلى الوجوه لا إلى العيون أوالأبصار ووجوه أهل الجنة إلى ربهم دائما من غير أن يواجهوا بها غيره"[١].

وبذلك فإنَّ الآية الكريمة: " وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ " وأمثالها الذي يظن البعض أنَّها دالَّة على التجسيم تكون من باب الرمز والكناية، "وإننا نعلم أنَّ أيَّة آية قرآنية لا يمكن أن تُخالف حكم العقل ومنطق الحكمة" [٢].

فالتعبير هنا كناية عن العقوبات الثقيلة التي تنتظر هؤلاء القوم في نار جهنم، انهم ينتظرون عذابا قاسيا قاصما، في حين ان الجماعة السابقة تنتظر الرحمة الإلهية ومستعدون للقاء الله عزوجل، فهؤلاء أعد لهم اسوء العذاب وأولئك لهم النعم والمواهب وجميع اللذات [٣].

فأنَّ ذاته المقدسة منزهة عن مثل هذا الاعتقاد الملوث، كما اعتمد القرآن هذا المعنى في آياته مرات عديدة، منها ما في الآية: "لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَيُدْرِكُ الْأَبْصَارَ " [الانعام / ١٠٤]، فهذه الآية عامة لا تختص فقط في الدنيا.

بالتالي ان عدمية النظر المادي الحسي الى الله تعالى واضح وثابت ولا نحتاج فيه الى البحث او النقاش وهذا يثبت لمن له ادنى اطلاع بالمعارف الاسلامية والمفاهيم القرآنية[٤]." ومن العجيب أنَّ كثيراً من المذاهب يعتقدون أنَّ الله سيرى يوم القيامة، ويعبر صاحب تفسير المنار عن ذلك بقوله: هذا من مذاهب أهل السنة والعلم بالحديث، والأعجب من ذلك أنَّ بعض المحققين المعاصرين يميلون –أيضاً– إلى هذا الاتجاه ويصرّون عليه! أمَّا الواقع فإنَّ بطلان هذه الفكرة إلى درجة من الوضوح بحيث لا يستوجب نقاشاً، لأنَّ الأمر لا يختلف بين الدنيا والآخرة (إذا قلنا بالمعاد الجسماني)، إنَّ الله فوق المادة، ولا يتبدل يوم القيامة إلى وجود مادي، ولا يخرج من لا محدوديته ليصبح محدوداً، ولا يتحوَّل في ذلك اليوم إلى جسم أوإلى كيفية من كيفيات الجسم! وهل الأدلة العقلية على عدم إمكان رؤية الله في الدنيا هي غيرها في الآخرة؟ أم هل يتغير حُكم العقل بهذا الشأن يومذاك؟! ولا يمكن تبرير هذه الفكرة بأن من المحتمل أن يصبح للإنسان في الآخرة نوع آخر من الرؤية والإدراك، لأنَّ هذه الرؤية والإدراك إذا كانت في الآخرة فكرية وعقلانية، فإننا في هذه الدنيا أيضاً نشاهد الله وجماله بعين القلب وقوة العقل، أمَّا إذا كانت الرؤية هي نفسها التي نرى بها الأجسام، فإن رؤية الله

[١] المصدر نفسه ، ٢٠ / ١١٢.

[٢] الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٤ / ٤١٥.

[٣] ينظر: الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٩ / ٢٢٣.

[٤] المصدر نفسه، ١٩ / ٢٢١.

بهذا المعنى مستحيلة في هذه الدنيا وفي الآخرة على السواء،على ذلك فإن القول بأن الإنسان لا يرى الله في هذه الدنيا، ولكن المؤمنين يرونه يوم القيامة غير منطقي وغير مقبول، إن ما حمل هؤلاء على الذهاب إلى هذا المذهب والدفاع عنه هو وجود أحاديث في كتبهم المعروفة تقول بإمكان رؤية الله يوم القيامة، ولكن أليس من الأفضل أن نقول ببطلان هذا الرأي بالدليل العقلي، ونحكم باختلاق أمثال هذه" [١].

وعلى هذا فإنَّ الحكم النقلي والعقلي يثبت أنَّ الله عزَّ وجلَّ فوق الابصار والعقول ولايمكن رؤية أوإدراكه ولكن يمكن إدراك قدرته وإثبات الوهيته من جليل آثار مُلكه وعظيم خلقه للأنفس والآفاق.

مقاصد الآية المباركة: "وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) "

أولاً: الإخبار الحقّ عن يوم الحقّ لتجنب المعاصي

الحل الأنجع لهذه المعضلة عند البشر يتم بإعادة التوازن بينهما إلى نفسه، ولأنَّ العاجلة شهود يعايشه بوعيه وحواسه فإنَّ حاجته الملحة إلى رفع الغيب إلى مستوى الشهود عنده، ولذلك يضعنا القرآن أمام مشاهد حية من غيب الآخرة حيث الناس فريقان: فريق السعداء الذين تُجَلِّل وجوههم النضارة، ويصلون إلى غاية السعادة بالنظر إلى ربهم عزَّ وجلَّ، وفريق البؤساء الخاسرين أصحاب الوجوه الباسرة، الذين ينتظرون بأنفسهم العذاب والذلة [٢].

ثانياً: إثبات المعاد والرّد على منكريه

هذه الآيات المباركة ترجع ثانية لاكمال الأبحاث ذات الصلة بالمعاد، وخصوصياته، مع بيان العلل التي تجعل بعض القوم ينكرون المعاد فيقول تعالى: "كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ العَاجِلَةَ""فليس الأمر كما يتصور من أنَّ دلائل المعاد خفية ولا يمكنكم الاطلاع عليها، بل إنَّكم عشقتم الدنيا ولهذا السبب تركتم الآخرة وتذرون الآخرة، إنَّ الشك في قدرة الله تعالى وجمع العظام وهي رميم ليس هو الدافع لإنكار المعاد، بل إنَّ حُبكم الشديد للدنيا والشهوات والميول المغرية هي التي تدفعكم إلى رفع الموانع عن طريق ملذاتكم، وبما أنَّ المعاد والشريعة الإلهية توجد موانع وحدوداً كثيرة على هذا الطريق، لذا تتمسكون بإنكار أصل الموضوع، وتتركون الآخرة بتمامها" [٣].

ومن علل انكار المعاد والبعث ثانية والميل نحو المادية هو "كسب الحرية المطلقة للانجراف وراء الشهوات واللذات والذنوب، ولا ينحصر هذا في العهود السابقة، بل يتجلَّى هذا المعنى في عالم اليوم بصورة أوضح، وهاتان الآيتان تؤكدان ما ورد في

[١] المصدر نفسه، ٤ / ٤١٥.

[٢] ينظر: السيد مُحمَّد تقي المدرسي، مقاصد السور، ٢٨٤.

[٣] الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٩/ ٢١٩.

الآيات السابقة والتي قال فيها تعالى شأنه: بل يريد الإنسان ليفجر أمامه وقال أيضا: يسأل أيان يوم القيامة، ثم ينتهي إلى تبيان أحوال المؤمنين الصالحين والكفار المسيئين في ذلك اليوم، فيقول تعالى: وجوه يومئذ ناضرة، هذا من ناحية العطايا المادية، وأمَّا عن العطايا الروحية فيقول تعالى: إلى ربها ناظرة نظرة بعين القلب وعن طريق شهود الباطن، نظرة تجذبهم إلى الذات الفريدة وإلى ذلك الكمال والجمال المطلقين، وتهبهم اللذة الروحانية والحال الذي لا يوصف، إذ أنَّ لحظة منها أفضل من الدنيا وما فيها، والجدير بالذكر أنَّ تقديم (إلى ربها) على (ناظرة) تفيد الحصر، أي ناظرة إلى الله فقط لا إلى غيره" [1].

المصادر والمراجع

• ابن منظور: محمَّد بن مكرم بن علي (ت / ٧١١هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.

• الشريف المرتضى: علي بن الحسين بن موسى الموسوي (ت / ٤٣٦هـ)، الايات الناسخة والمنسوخة، تحقيق: علي جهاد الحساني، مؤسسة البلاغ، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

• الراغب الاصفهاني: أبو القاسم الحسين بن محمَّد الاصفهاني (ت / ٥٠٢هـ)،المفردات في غريب القران، تحقيق : صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

• الزمخشري: أبو القاسم محمود بن عمرو جار الله (ت / ٢٣٨هـ)، اساس البلاغة، تحقيق : محمَّد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

• السرخسي: محمَّد بن أحمد بن أبي السهيل (ت / ٤٨٣هـ)، أصول السرخسي، دار المعرفة، بيروت.

• محمَّد الحسيني الشيرازي، تقريب القران الى الاذهان، دار العلوم، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

• محمَّد باقر الحكيم، علوم القران الكريم، مجمع الفكر الاسلامي، مطبعة نكارش- قم المقدسة، مؤسسة الهادي، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ

• محمَّد تقي المدرسي، مقاصد السور، دار المحجة البيضاء، بيروت، ١٤٣٤هـ.

• محمَّد تقي المدرسي، من هدى القران، دار القارئ، بيروت، ١٣٢٩ هـ.

• الشريف الجرجاني: علي بن محمَّد بن علي (ت / ٨١٦ هـ)، التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

[1]) المصدر نفسه، ١٩ / ٢٢٠.

• الطبرسي: أبي علي الفضل بن الحسن (ت /٥٤٨هـ.)، مجمع البيان في تفسير القران، تحقيق : السيد هاشم الرسولي المحلاتي والسيد فضل الله اليزدي الطباطبائي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ _ ١٩٨٦م.

• الطوسي: أبي جعفر محمَّد بن السن (ت /٤٦٠هـ)، التبيان في تفسير القران، تقديم : الشيخ اغا بزرك الطهراني، دار احياء التراث العربي، بيروت.

• جعفر السبحاني، المناهج التفسيرية في علوم القران، مؤسسة الامام الصادق(عليه السلام)، قم المقدسة، الطبعة الرابعة، ١٤٣٢هـ

• علي عبد الرزاق مجيد مرزة، التجديد في تفسير القرآن المجيد، المؤسسة الإسلامية للبحوث والمعلومات، ايران، ١٤٣٨هـ.

• الشيخ مُحمَّد السبزواري (ت/ ١٤٠٩هـ)، الجديد في تفسير الكتاب العزيز، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

• محمَّد باقر الملكي الميانجي، نفحات من علوم القران، اعداد : السيد فاضل الرضوي، تحقيق : مرتضى الاعدادي الخرساني، مؤسسة العتبة الرضوية المقدسة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ.

• محمَّد هادي معرفة، التمهيد في علوم القرآن، مؤسسة فرهنگی انتشاراتی، قم المقدسة، ١٣٢٨هـ.

• ناصر مكارم الشيرازي، الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، مدرسة الامام علي (عليه السلام)، قم المقدسة، الطبعة الأولى، ١٣٧٩هـ.

• ناصر مكارم الشيرازي، الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، مدرسة الامام علي (عليه السلام)، قم المقدسة، الطبعة الأولى، ١٣٧٩هـ.

• الطباطبائي: محمَّد حسين (ت /١٤٠٢هـ)، الميزان في تفسير القرآن، منشورات اسماعيليان.

• العياشي: محمَّد بن مسعود العياشي (ت/٣٢٠هـ)، تفسير العياشي، تحقيق : السيد هاشم الرسولي المحلاتي، المكتبة العلمية الاسلامية، طهران.

• الفيض الكاشاني: محمَّد بن المرتضى محسن الكاشاني (ت / ١٠٩١هـ)، الصافي في تفسير القران، تحقيق : السيد محسن الحسيني الاميني، مطبعة المروى، طهران، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

• محمَّد بكر اسماعيل (ت / ١٤٢٦هـ)، دراسات في علوم القران، دار المنار، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ١٩٩٩م.

• المراد من المحكم والمتشابه في القرآن، مركز الابحاث العقائدية ، /http://www.aqaed.com/faq/4813

Sources and references

• Al-Ayyashi: Muhammad bin Masoud Al-Ayyashi (d. 320 AH), Tafsir Al-Ayyashi, edited by: Sayyed Hashim Al-Rasouli Al-Mahallati, Islamic Scientific Library, Tehran.

• Al-Fayd Al-Kashani: Muhammad bin Al-Murtada Muhsin Al-Kashani (d. 1091 AH), Al-Safi fi Tafsir Al-Qur'an, edited by: Al-Sayyid Muhsin Al-Husseini Al-Amini, Al-Marwa Press, Tehran, first edition, 1419 AH.

• Ali Abdul Razzaq Majeed Marza, Innovation in the Interpretation of the Glorious Qur'an, Islamic Research and Information Foundation, Iran, 1438 AH.

• Al-Raghib Al-Isfahani: Abu Al-Qasim Al-Hussein bin Muhammad Al-Isfahani (d. 502 AH), Al-Mufradat fi Gharib Al-Qur'an, edited by: Safwan Adnan Al-Daoudi, Dar Al-Qalam, Damascus, first edition, 1412 AH .

• Al-Sarkhasi: Muhammad bin Ahmed bin Abi Al-Suhail (d. 483 AH), Usul Al-Sarkhasi, Dar Al-Ma'rifa, Beirut .

• Al-Sharif Al-Jurjani: Ali bin Muhammad bin Ali (d. 816 AH), Definitions, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, Beirut, first edition, 1403 AH - 1983 AD.

• Al-Tabarsi: Abu Ali al-Fadl ibn al-Hasan (d. 548 AH), Majma' al-Bayan fi Tafsir al-Qur'an, edited by: Sayyed Hashim al-Rasuli al-Mahallati and Sayyed Fadlallah al-Yazdi al-Tabatabai, Dar al-Ma'rifa, Beirut, first edition, 1406 AH _ 1986 AD .

• Al-Tabatabai: Muhammad Hussein (d. 1402 AH), Al-Mizan in the Interpretation of the Qur'an, Ismailian Publications.

• Al-Tusi: Abu Jaafar Muhammad bin Al-Sin (d. 460 AH), Al-Tibyan fi Tafsir Al-Qur'an, presented by: Sheikh Agha Buzurg Al-Tahrani, Dar Revival of Arab Heritage, Beirut.

• Al-Zamakhshari: Abu Al-Qasim Mahmoud bin Amr Jar Allah (d. 238 AH), The Basis of Rhetoric, edited by: Muhammad Basil Uyun Al-

Aswad, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, Beirut, first edition, 1419 AH - 1998 AD.

• Center for Ideological Research, What is meant by the decisive and similar in the Qur'an, http://www.aqaed.com/faq/4813/

• Ibn Manzur: Muhammad bin Makram bin Ali (d. 711 AH), Lisan al-Arab, Dar Sader, Beirut, third edition, 1414 AH.

• Jaafar Al-Subhani, Interpretive Methods in the Sciences of the Qur'an, Imam Al-Sadiq Foundation (peace be upon him), Holy Qom, fourth edition, 1432 AH.

• Muhammad Al-Husseini Al-Shirazi, Bringing the Qur'an closer to mind, Dar Al-Ulum, Lebanon, first edition, 1424 AH - 2003 AD.

• Muhammad Bakr Ismail (d. 1426 AH), Studies in the Sciences of the Qur'an, Dar Al-Manar, second edition, 1419 AH 1999 AD.

• Muhammad Baqir al-Hakim, Sciences of the Holy Qur'an, Academy of Islamic Thought, Nakarsh Press - Holy Qom, Al-Hadi Foundation, third edition, 1417 AH.

• Muhammad Baqir al-Malaki al-Mianji, Nafhat Min Ulum al-Qur'an, prepared by: Sayyed Fadel al-Radawi, edited by: Murtada al-Khurasani Preparatory School, Holy Shrine of Razavi Foundation for Printing and Publishing, first edition, 1435 AH.

• Muhammad Hadi Maarifa, Introduction to the Sciences of the Qur'an, Farhangi Publications Foundation, Holy Qom, 1328 AH.

• Muhammad Taqi Al-Mudarresi, Maqasid Al-Surah, Dar Al-Mahja Al-Bayda, Beirut, 1434 AH.

• Muhammad Taqi Al-Mudarrisi, from Huda Al-Qur'an, Dar Al-Qari', Beirut, 1329 AH.

• Nasser Makarem Al-Shirazi, Al-Athmal fi Interpretation of the Revealed Book of God, Imam Ali (peace be upon him) School, Holy Qom, first edition, 1379 AH.

• Nasser Makarem Al-Shirazi, Al-Athmal fi Interpretation of the Revealed Book of God, Imam Ali (peace be upon him) School, Holy Qom, first edition, 1379 AH.

• Sharif Al-Murtada: Ali bin Al-Hussein bin Musa Al-Musawi (d. 436 AH), Abrogated and Abrogated Verses, edited by: Ali Jihad Al-Hassani, Al-Balagh Foundation, Beirut, first edition, 1421 AH - 2000 AD.

• Sheikh Muhammad al-Sabzwari (d. 1409 AH), New Fi Tafsir al-Kitab al-'Aziz, Dar Al-Ta'arof Publications, Beirut, first edition, 1402 AH - 1982 AD.